بعث القديم

للدكتور محمد مندور

ليس من شك فى أن ثقافتنا الحديثة تقوم كما قلنا فى المقال السابق على أساسين : بعث التراث العربى القديم والأخذ عن أوربا ، ولقد كان للحملة الفرنسية فى ذلك أبلغ الأثر وذلك لأمرين : نقل الطباعة إلى مصر وفتح منافذ بلادنا على العالم الغربى . ولا ريب فى أن عودة الفرنسيين إلى بلادهم حاملين آلات الطباعة التى كانوا قد أتوا بها إلى مصر قد أخر نهضتنا الثقافية ما يقرب من جيل ، وذلك لأننا لم نستطع أن نستخدم الطباعة بعد ذلك إلا فى سنة ١٨٢٢ أى بعد الحملة الفرنسية بعشرين عاماً ، وإذا ذكرنا أن حركة البعث العلمى فى أوربا لم تصب ما أصابت من نجاح فى القرن السادس عشر بعد الميلاد إلا بفضل تلك الطباعة ، أدركنا أن نهضتنا الثقافية الواسعة لم تبدأ فى حقيقة الأمر إلا منذ استخدامنا لآلات الطباعة على نحو مطرد أى منذ سنة ١٨٢٢ كما قلنا ؛ وإنه وإن تكن الجمعيات العلمية التى ألفت لنشر الكتب لم تتكون فى حقيقة الأمر إلا بعد ذلك بكثير ؛ فجمعية المعارف التى أسسها محمد عارف باشا لا ترجع إلى أبعد من سنة ١٨٦٠ وهى تشبه فى تكوينها إلى حد بعيد لجنة التأليف القائمة الآن وشركة طبع الكتب العربية التى كان من أعضائها حسن باشا عاصم وأحمد بك تيمور لم تتأسس إلا سنة ١٨٩٨ ؛ إلا أن حركة البعث أقدم من ذلك بكثير فهى لم تنتظر تكوين الجمعيات لتبدأ ، ولعل انتشار الأفكار الأوربية بفضل أعضاء البعثات كان من أهم الدوافع لذلك البعث ، فرجل كرفاعة الطهطاوى قد فطن بلا ريب أثناء إقامته بفرنسا إلى أن النهضة الأوربية التى رآها قد ابتدأت بحركة بعث قوية للآداب القديمة لاتينية ويونانية ، ولهذا كان يؤمن بأن نهضة بلادنا لا يمكن أن تعتمد على النقل عن أوربا فحسب ، بل يجب أن تعنى إلى جانب ذلك ببعث القديم العربى

ولقد ظهرت آثار هذا البعث فى الشعر قبل ظهورها فى النثر ، وأكبر شخصية تمثل بعث الشعر هى بلا شك شخصية محمود سامى البارودى ، وتلك ظاهرة من اليسير فهمها ، فالنثر الذى كان شائعاً عندئذ لم يعد أن يكون : إما نثراً تعبيرياً يستخدم فى التأليف العلمى أو فى الصحافة ، وإما نثراً شخصياً كالذى نجده فى الرسائل ، والنوع الأول لم يكن يخلو من عجمة فى الصحف ومن نزعة للجدل والتعقيد فى التأليف . والنثر الشخصى ظل نثراً مسجوعاً لفظياً متكلفاً حتى عند أولئك الكتاب الذين نمت ثقافتهم حتى امتلكوا أفكاراً يغنيهم جمالها أو عمقها عن تزويق اللفظ كالأستاذ الإمام الذى ظل يكتب بالأسلوبين معاً ، أسلوب التأليف وأسلوب الرسائل

وفى الحق إننا لا نعرف أسلوباً يتميز به الأدب الحديث بأضيق معانيه غير أسلوب القصة ، فهى أكبر مظهر من مظاهر الأدب الحديث ، وليس بخاف أن القصة حديثة العهد ببلادنا وهى بمجرد ظهورها أخذت تغذى السجع بمادة الفكر وتنقله من التفاهة إلى الجد ، وهذا واضح فى حديث عيسى بن هشام ؛ فأسلوب المويلحى رغم حرصه على أوجه العبارة البلاغية لا يخلو من فكر وإحساس صادقين ، وذلك لأن القصة بطبيعتها تقدم

فى الحضارة الإنسانية ، ويوفوا دينهم للتاريخ . ولن يكونوا إلا كما كانوا من قبل أنصار حق ودعاة أخوة وبناة مدنية وأئمة يهدون إلى الحق وبه يعدلون . ليست دعوة العرب عدواناً على أحد ولا عداء لأحد ، وإنما هى دعوة الأمة الكريمة العزيزة العادلة التى تعرف ما يجب عليها لنفسها وللناس ، وتحرص على أن تحمل ما هى أهل له من الإعباء ، وتشيد ما هى جديرة به من المكارم ، وتأخذ حقوقها وتؤدى واجباتها على سنن بين من العدل والإحسان ، وخطة قويمة من الهدى والرشد . والله المسؤول أن يهيئ لها من كل أمر رشدا

عبد الوهاب عزام

للكاتب مادة ، وكل مادة تحتاج إلى العبارة عنها ، فيأتى الأسلوب محملاً بتلك المادة

ومنذ أن خطا أسلوب النثر تلك الخطوة أخذ يشيع فى غير القصص حتى امتد إلى المقالة أو الموضوع القصير على نحو ما نجد عند السيد توفيق البكرى الذى جمع فى أسلوبه بين الصنعة اللفظية وجمال الصور الخيالية وصدق الإحساس أو أصالة الرأى . ولكننا رغم كل ذلك لا نستطيع أن نقول إن النثر قد وصل عندئذ إلى ما لم يكن بد من أن يصل إليه ليجارى النثر الأوروبى فيصبح تعبيراً مباشراً عن فكر غنى أو إحساس صادق ثم يتسم رغم مباشرته بصفات الأدب كعمل فنى ، وتلك مرحلة لم نصل إليها إلا فى القرن العشرين . وليس من شك فى أن السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هو الذى خطا بنثرنا إلى تلك المرحلة الأخيرة . ومنذ ظهور هـذا الكاتب العظيم لم يلبث النثر أن استحصد حتى سبق الشعر

واليوم ننظر فى نثرنا فنرى تيارين كبيرين ينطوى فى أثناء أحدهما المويلحى والبكرى ومصطفى صادق الرافعى واحمد حسن الزيات على اختلاف فى الأمزجة وعمق التفكير أو الإحساس ، ولكنهم يجتمعون معاً فى خاصية واحدة ، هى أنهم وإن يكونوا أبعد من أن يمثلوا فى شىء اللفظية التى سادت فى عصور مصر الإسلامية المتأخرة ، إلا أنهم رغم ذلك يحرصون على تجويد العبارة تجويداً فنياً ، ويخضعون الفكر أو الإحساس لطرق الأداء حتى ليأخذك فى أدبهم جمال الصياغة قبل أصالة الموضوع ، أو تحس بأن تلك الأصالة قد اضطرتهم إليها أصول الأسلوب التى ينتهجونها

والتيار الثانى يبتدئ كما قلنا بالمنفلوطى ، ذلك الرجل المرهف الإحساس المذب الأسلوب . ذلك الكاتب الذى غذى أجيال الشباب الناهضة أجل الغذاء ، وبلغ من التأثير فى نفوسهم ما لم يكد يبلغه كاتب آخر . ولقد كان لعدم معرفة هـذا الكاتب باللغات الأجنبية معرفة تعمق وإحساس ، ما احتفظ لأسلوبه بالسلاسة العربية الصافية . وأما غيره من كتاب هذا التيار فلن تعدم أن تجد فى أسلوبهم آثاراً واضحة للتأثر باللغات الأجنبية ، وما نظننا فى حاجة إلى أن ندل على ما فى أسلوب كاتب كبير كطه حسين من تأثر واضح بطرق الأداء الفرنسية

وأما الشعر فقد سبق النثر — كما قلنا — إلى التحلل من سخافات الصنعة اللفظية وتفاهة المادة ، وسر هذا التحرر يرجع إلى بعث الشعر العربى القديم من جهة ، وإلى طبيعة هذا النوع من الأدب من جهة أخرى ، فنحن نلاحظ أن البارودى قد سلك إلى تكوين مذهبه الشعرى نفس المسلك الذى سلكه من قبل أبو تمام ، فالشاعر العباسى قد كان دائم القراءة للشعر القديم والاختيار منه ، حتى قالوا إنه قد ألف ثمانية أنواع من المختارات ، ولا يزال بين أيدينا ديوان الحماسة شاهداً بأن هذا الشاعر كان أحسن اختياراً وتذوقاً للشعر منه خلقاً له . وكذلك فعل البارودى ، فمختاراته تضم جانباً كبيراً من خير ما خلف العرب . وشعر البارودى نفسه شديد الشبه بشعر المتنبى ، كما أن شعر صبرى باشا يكاد يحكى شعر البحترى ، وفى هذه الحقائق ما لا يدع مجالاً للشك فى أن نهضة الشعر الحديث عندنا إنما قامت على بعث القديم ومحاكاته

وموضع التساؤل هو : كيف يستطيع شعر يقوم على محاكاة القديم أن يعبر عن حياة جديدة ؟

هذه المشكلة سبق أن واجهها الأدب العربى واقتتل حولها النقاد والشعراء ، ففى العصر العباسى سخر أبو نواس من الدمن والأطلال وبكاء دعد وإسعاد الرفيق وإلف الغانة ، وظنه تجديداً أن يخرج على تلك الأوضاع ليغازل الخمر ويداعب الغلمان ويصف القصور والحدائق . وهذه النظرية وإن تكن لها وجاهة الظاهر ، إلا أنها فى الحقيقة لا تعدو أن تكون وجاهة سطحية ، فالفن ليس بهياكله ، وإنما هو بروحه وصياغته ، ولا أدل على ذلك من أننا ما نزال إلى اليوم نؤمن بأن خير ما خلف العرب من شعر هو لا ريب الحنين إلى الديار ، وذلك لأن هذا الحنين وإن لم يعت إلى تجاربنا الحاضرة بسبب من واقع الحياة ، إلا أنه يرمز

فى حقيقة الأمر إلى مشاعر إنسانية عامة ، لا تزال ولن تزال من أجل ما نحمل من مشاعر ، فهو يثير فى النفس شعور الإلف والحنين إلى الماضى ، والتعلق بالأمكنة التى لا ريب لها أرواح تعلق بأرواحنا فتحملها على المحبة . والإحساس بالأمكنة وما تحوى من ذكريات ومسرات وآلام من أخصب منابع الأدب . ونحن بعد لا نحتاج إلى أن نمارس بالفعل كل التجارب التى نتحدث عنها فى أدبنا ، وإلا كنا فقراء الخيال . ومن يستطيع أن يزعم أن كاتباً أو شاعراً ما قد بلا بنفسه كل ما يتحدث عنه ؟ وهل ننسى أن جانباً كبيراً من آداب العالم أجمع لا يمثل ما عاشه كتابه بالفعل ، بل ما ودوا أن لو عاشوه ؟ والواقع والخيال يرجعان بعد فى الأدب الصادق إلى منبع واحد، هو القلب البشرى . وأساس النجاح هو أن يستثير الكاتب فينا إحساساً حقيقياً ، سواء أكان ذلك الإحساس التفاتة إلى ماض عرفناه، أو تلهفاً إلى مستقبل نودأن نعرفه ، أو مزيجاً منهما

وإذن فعندما نسمع الشاعر الذى يقول :

ألا أيها الوادى الذى ضم سيله
إلينا نوى ظمياء ، حييت واديا !

لا نملك إلا أن نهتز ، ولو لم نر فى حياتنا سيلا ولا وادياً ولا عرفنا ظمياء

والشعر القديم أمس قرباً بالروح الشعرية بحكم موضوعه وصياغته ، فالطلل والناقة أحب إلى النفس من القصر والسيارة . الطلل يستثير معنى الفناء ، ونحن البشر لا يحركنا معنى أكثر مما يحركنا هـذا المعنى . وإن كان من نعم الله أننا ننساه أغلب الوقت ، وربما كان فى هـذه الحقيقة ما يزيده قوة حينما يثار . والناقة حيوان أليف صبور ودود ، ولا كذلك الآلة الصماء ، وصياغة الشعر القديم كموضوعاته ألصق ما تكون بحقيقة الفن . الشعر الجاهلى يجمع على نحو رائع شاعرية الروح وواقعية العبارة ، حتى ترى صورة مادية قريبة مأخوذة من واقع الحيـــاة وقد خلت من كل تكلف فاسد

لقد ابتدأ البعث الشعرى فى بلادنا إذن بإحياء القديم ، ولكن هذا الإحياء لسوء الحظ قد جنح إلى العصر العباسى ، حتى إننا لا نزال إلى اليوم أكثر معرفة ودراسة لأدب ذلك العصر منا للأدب الجاهلى والأموى ، وذلك فيما يبدو لسهولة الأدب العباسى ومشقة الأدب القديم ، ثم لأننا فيما أعتقد لم نصل بعـد من النضوج الفنى إلى حيث نؤمن بتلك الحقيقة الكبيرة التى قال بها من قبل الرجل الصادق الذوق السيد المرصفى من أن خير الأدب العربى الجاهلى والأموى .

ونحن نعتقد أن الإمعان فى دراسة ذلك الأدب الجاهلى وتذوقه هو الوسيلة الوحيدة للخطو بشعرنا التقليدى خطوة جديدة أو على الأقل لصيانته من أن ينقرض أمام تيار الشعر الحديث المستمد من الأدب الغربى

هذه هى مظاهر البعث الأدبى فى مصر المعاصرة أجلناها ، وبقى أن ننظر فى النقل عن أوربا ، وكيف أثر هـذا النقل فيما بعثنا من تراث ، وكيف تفاعل معه ليخلق نوعا جديداً من الحياة الثقافية نخشى أن يكون جانب كبير منها مفتعلا ، ولكننا نرجئ تفصيل ذلك إلى المقال الآتى

محمد مندور

الشـــوامخ

امرؤ القيس

درس وتحليل

بقلم

الدكتور محمد صبرى

أول كتاب يبرز عبقرية زعيم الشعر الجاهلى بأسلوب جديد يستند إلى التحليل المقارن بأدب الإفرنج

يطلب من المكاتب الشهيرة ـ الثمن ٣٠ قرشا